

## مالك بن نبي والثورة الجزائرية

### التحليل والموقف

د. الطاهر سعود\*

---

#### تمهيد

تحتل الثورة بوصفها ظاهرة إنسانية وسياسية تاريخية حيزاً مهماً في اهتمامات العلوم الاجتماعية من علم نفس واجتماع وتاريخ وغيرها، والدراسة الاجتماعية للظاهرة الثورية تتعمق في جوانب الثورة لا من حيث هي تفاصيل تاريخية عسكرية أو غيرها وإنما باعتبارها فعلاً إنسانياً تحكمه قوانين يسعى عالم الاجتماع إلى اكتشافها.

وفي هذا المقال سنحاول أن نعرض إسهامات أحد أبرز المفكرين المسلمين في القرن العشرين ألا وهو المفكر الجزائري مالك بن نبي، باعتباره - في رأينا - واحداً من الذين قدموا جهوداً ورؤى اجتماعية مهمة في تحليل الثورة وفق نظر مستقل انبنى على فهم نظري ومعايشة علمية.

---

\* أستاذ في قسم علم الاجتماع بجامعة فرحات عباس بسطيف، الجزائر.

## إسهامات مالك بن نبي التنظيرية حول الثورة (التحليل)

احتطَّ مالك بن نبي في تحليله لظواهر عديدة مثل ظاهرة التخلف والتنمية ومعالجاته في السياسة والاقتصاد والثقافة إلخ، طريقاً ثالثاً، ولم يكن تابعاً لنماذج التحليل المهيمنة في عصره (الماركسية والديالية). وقد برزت فريدة كثير من آرائه في كتاباته عن الظاهرة الثورية التي سنخصصها بمزيد العناية والاهتمام.

لقد كانت الحركة (الثورة) النبوية الأولى مصدر الإلهام لمالك بن نبي، كما كانت الثورات الإنسانية الأخرى التي شهدتها العالم محل تأمل لديه وتفكير، كالثورة الفرنسية والبلشفية والصينية. إلا أن الثورة الجزائرية التي عاصرها شكلت لديه بسبب القرب الزمكاني والنفسي والثقافي معلماً بارزاً جعلها محطة مهمة في بلورة تنظيراته وتحليلاته.

إن ما كتبه مالك بن نبي لم يكن تأريخاً للثورة الجزائرية، بالرغم من أنه عرض نفسه على قيادة جبهة التحرير الوطني التي كان تقود الثورة ليكون في جبهة القتال ممرضاً لجنودها وكاتباً لأحداثها عن قرب. بل يمكن أن نصنف جل ما قدمه عنها من كتابات ضمن ما نسميه التحليل (الاجتماعي) للثورة.

ورغم أن القضايا المتعلقة بالاستعمار كانت أحد أبرز المحاور المهمة التي شغلت مالك بن نبي في كل كتاباته وإسهاماته الفكرية وعالجها بطريقة فيها إبداع وابتكار (نحته لمصطلحات وتطويره لمفاهيم مثل القابلية للاستعمار [colonisabilité]، والمعامل الاستعماري [coefficient colonisateur]، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة [lutte idéologique]، إلخ)، إلا أنه لم يكتب حول قضايا الثورة إلا في مرحلة متأخرة منها، وبعد الاستقلال تحديداً، وذلك بمنطق ما يمكن أن نسميه التأمل الفكري البعدي في مسار حركة هذه الأخيرة؛ حيث يقول: "وها هي ذي نقاط كثيرة حرمتنا هيبُ المعركة أو قلة خبرتنا من الالتفات إليها في حينها أثناء الثورة

الجزائرية، تصبح اليوم تجذب اهتمامنا، كأها جديدة علينا"، ف"الأحداث التي تابعت... جعلتنا نتأملها مرة أخرى بعقولنا."<sup>1</sup>

وقد ضم كتابه "بين الرشاد والتهيه" مقالات كان قد نشرها خلال عقد الستينيات (بين 1965-1968) في جريدة الثورة الإفريقية *La révolution Africaine* تلخص في مجملها تحليلاته وقراءاته الاجتماعية لبعض الجوانب المتعلقة بالثورة، كما نجد في بعض كتبه الأخرى مثل كتابه "من أجل التغيير"<sup>2</sup> و"القضايا الكبرى"<sup>3</sup> و"في مهب المعركة"<sup>4</sup> مصاديق واقعية شارحة لما كتبه بلغة التنظير والتجريد في كتابه "بين الرشاد والتهيه".

وحتى لا يقتصر حديثنا على التحليل العام (النموذج النظري) لمالك بن نبي للظاهرة الثورية، سنحاول أن نربط بين التحليل والأنموذج الواقعي؛ أي بين التنظير للظاهرة الثورية عموماً والتطبيق الواقعي لذلك التنظير على الثورة الجزائرية كأنموذج تطبيقي، وهذا كله بالعودة إلى ما كتبه.

## مفهوم الثورة

يعرف مالك بن نبي الثورة بأنها "محاولة تغيير أوضاع معينة بطريقة مستعجلة وهادفة."<sup>5</sup> ويقول في مكان آخر "إن ثورة ما هي في جوهرها عملية تغيير، غير أن

<sup>1</sup> بن نبي، مالك، بين الرشاد والتهيه، إشراف ندوة مالك بن نبي (دمشق: دار الفكر، ط2، 1988)، ص13.

<sup>2</sup> يحوي هذا الكتاب هو الآخر مقالات نشرت في الفترة نفسها في جريدة الثورة الإفريقية، وقد جمعها نور الدين بوكروح في كتاب بالفرنسية بعنوان من أجل تغيير الجزائر ثم نشرها دار الفكر بعناية عمر كامل مسقاوي بعد ترجمتها إلى العربية من طرف بسام بركة.

<sup>3</sup> نشر جزء من هذا الكتاب تحت عنوان آفاق جزائرية للثقافة والحضارة والمفهومية.

<sup>4</sup> هذا الكتاب عبارة عن مقالات كتبها بن نبي في فترة ما قبل الثورة الجزائرية في صحيفتي الشباب المسلم والجمهورية الجزائرية، وهو يراها كما جاء في تقديمه للكتاب واصفة لبعض الظروف التي مهدت للثورة.

<sup>5</sup> عبادة، عبد اللطيف، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي (باتنة: دار الشهاب، ط1، 1984)، ص131

(الملحق: وصية مالك بن نبي).

لهذا التغيير أسلوبه وطبيعته، فأما الأسلوب فيتسم بالسرعة... وأما طبيعة التغيير فإنها تتحدد في نطاق الجواب عن السؤال التالي: ما هو الموضوع الذي يجب تغييره ليقب التغيير متمشياً مع معناه الثوري؟<sup>1</sup>

من هذا التحديد نستخلص أن للثورة في فكر بن نبي شرطين أساسيين هما: الغائية: فالثورة فعل هادف وليست فعلاً عبثياً، فكل ثورة لا تحدد أهدافها هي ثورة فاشلة من البداية؛ لأن حركة بلا هدف هي مجرد هدر للجهود والوقت والإمكانات دون طائل. وإذا كان هذا صحيحاً في النطاق الفردي الخاص، فإن القضية تغدو أخطر على المستوى المجتمعي العام، فحركة مجتمع دون هدف إن هي إلا هدر لإمكاناته وجهوده ووقته.

الاستعمالية (أي بطريقة مستعجلة): وهو المقوم الثاني، فالثورة من أهم ركائزها محاولة تجاوز عامل الزمن بإعادة ترتيب سريع في موازين بناء معين سواء كان سياسياً أم اجتماعياً أم أخلاقياً أم ثقافياً.<sup>2</sup>

### الثورة بوصفها اطراداً (مفاصل الثورة)

الأنموذج النظري: ينظر مالك بن نبي إلى الثورة بوصفها ظاهرة إنسانية تمر بعدد من المراحل المطردة والمتتابعة، فيقول: "وإذا قدرنا الثورة بوصفها اطراداً فإن لها روابط تربط بين أطرافها؛ أي مفاصلها، وتكون نقاط الضعف غالباً عندما تنتقل من مرحلة إلى التي تليها."<sup>3</sup> وليبرز خطورة القضية وخطورة ما يمكن أن يصيب الثورة من انحراف في المسار وتشويه للمضمون خلال سيرورتها يستعير لنا مثلاً من الحياة

<sup>1</sup> بن نبي، بين الرشاد واليه، ص 49. وانظر أيضاً كلاماً مشابهاً لذلك في عبد اللطيف عبادة، مرجع سابق، ص 131.

<sup>2</sup> يستلهم بن نبي من الإسلام؛ حيث يعتبره ثورة غيرت حتى أسماء معتنقيه.

<sup>3</sup> بن نبي، بين الرشاد واليه، ص 13.

الواقعية للأفراد؛ حيث يرى أن أحدنا يشعر بالضربة أكثر حين تصيبه في مفصل من مفاصله، ويكفيها أن نتصور أو نتذكر الضربة التي تصيبنا في مفصل الذراع أو الركبة لنقتنع بصحة القضية، لذلك فهو يقسم الثورة إلى مراحل:

مرحلة ما قبل الثورة (أو مرحلة التحضير)

مرحلة الثورة نفسها (أو مرحلة الإنجاز)

مرحلة ما بعد الثورة (أو مرحلة الحفاظ على الخط الثوري).<sup>1</sup>

وبن نبي يرى أن هذه المراحل تشكل تطوراً تاريخياً مستمراً، وأي خلل يصيب هذا النمو والتطور ستكون نتيجته زهيدة وخيبة للآمال.<sup>2</sup> وقد استلهم هذه المراحل من استقرائه لبعض الثورات كالثورة الفرنسية مثلاً؛ فهي كحركة تاريخية لم تسجل في التاريخ الفرنسي بشكل طفرى فجائي، وإنما برزت كمحصلة لمقدمات (ما قبل الثورة) أوجدها أفكار جان جاك روسو والعلماء الموسوعيين، وتدعمت هذه الحركة لتتفجر في 14 يوليو 1789، ثم أصاب هذه الثورة ما يصيب غيرها عندما سيطر عليها بعض أشباه الثوريين، وكان هذه النتيجة هي مآل كل ثورة وقدرها الذي لا محيد عنه.

يتضح هذا المآل - حسب بن نبي - عندما نرقب مسار الثورات في مرحلة ما بعد الثورة مثلاً، فقد تُسرق ثمرة الاستقلال عندما تطفو على السطح التزعات الفردية، وعندما تتفجر الأزمة على مستوى القيادات بسبب التنازع على المناصب ومواقع السيطرة والنفوذ. وهو ما حصل في العديد من البلاد التي خاضت ثوراتها لتصفية الاستعمار، فإذا بها تصبح عرضة للتقسيم كالكونغو وفيتنام... فهي ظاهرة "تتسم بها البلاد المستعمرة، فأبي وطن منها ارتفع فيه علم الاستقلال، لم يجد في ذلك اليوم أزمة تتفجر على مستوى قيادات!؟"<sup>3</sup>، إن الاستعمار عدوٌّ ماكر فهو "لا يستطيع فعلاً أن

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص 14.

<sup>2</sup> المرجع والصفحة نفسهما.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص 30.

يترك بلدًا كان يستعمره ولا أن يغادره هكذا وبكل بساطة، مخليًا وراءه المكان للاستقلال الجديد.<sup>1</sup>

وكما يمكن أن يُشوّه الاطراد الثوري وينحرف عند لحظة الانتقال من مرحلة من مراحل الثورة إلى المرحلة التي تليها، يمكن أن يطال عملية الثورة نفسها فتتحول إلى ما "لا ثورة" أو إلى "ضد الثورة" بفعل عوامل بعضها داخلي وبعضها خارجي: فالعوامل الداخلية تتمثل في الأخطاء العضوية التي يفرزها المجتمع ذاته الذي فجر هذه الثورة، بسبب تبعات الطريق الثوري ومغامره الكبيرة، أو بسبب ما ينطوي عليه المجتمع من حمائر من روح ما ضد الثورة بمقتضى طبيعته البشرية التي تميل إلى الحفاظ على الأوضاع القديمة المعتادة والتمسك بها.

أما العوامل الخارجية فهي التي يتعرض الاطراد الثوري بفعلها إلى التشويه أو التحريف من قبل مخابر الصراع الفكري الاستعمارية، وخبراء الاستعمار الذين يعرفون كيف تُجهض الثورات لما أتيج لهم من معرفة دقيقة بخريطة نفسية الشعب المستعمر، معرفة تمكنهم من تحديد العمل المناسب والوسيلة المكافئة والظروف المثالية لتطبيق خططهم فينالون من ثورته بما يحقنونه فيها من أخطاء.<sup>2</sup>

وتبعًا لقانون الاطراد الثوري الذي يرى من خلاله مالك بن نبي أن الثورة تتابع على متصل زمني مرحلي يؤكد أنه لا يكفي في وطن ما أن ندفع بعجلة الثورة إلى الأمام، بل يجب أن نتبع حركتها ونراقبها بعد ذلك تمامًا كما يفعل ريان السفينة مع سفينته.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> بن نبي، من أجل التغيير، الإعادة الأولى (دمشق: دار الفكر، 1998)، ص36.

<sup>2</sup> انظر في هذا الصدد كتاب: بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، إشراف ندوة مالك بن نبي، (دمشق: دار الفكر، ط 3، 1988). ولبن نبي كلام نفيس في كتابه "من أجل التغيير"، ص105؛ حيث يقول "عند الاستعمار معلومات عنا أكثر مما عندنا عنه... إنه يعرف مثلاً أننا نجاهه لا نفعل وإنما ننفعل، وهو عندما يكون قد دخل مرحلة التفكير في مشاكل الغد، في الحفر الموحلة التي يريد أن يوقعنا فيها، نكون نحن لا نزال نفكر في مشاكل الأمس التي أوقعنا فيها فعلاً".

<sup>3</sup> بن نبي، بين الرشاد والتهيه، مرجع سابق، ص16-17.

## الثورة التحريرية الجزائرية كأمودج تطبيقي

من خلال تتبع بعض النصوص المبثوثة في كتابات مالك بن نبي يمكن أن نجد في الثورة الجزائرية مصداقاً تطبيقياً لهذا التحليل التنظيري للظاهرة الثورية فيما يتعلق بقانون الاطراد الثوري.

### مرحلة التحضير (ما قبل الثورة)

وهي الإرهاصات التي سبقت لحظة الفاتح من نوفمبر 1954 واندلاع الثورة الجزائرية وجسدت معانيها الأعمال النضالية الثقافية والسياسية لفعاليات الشعب الجزائري ممثلة في الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية. فكما هو معلوم من التاريخ المعاصر عرفت الجزائر في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى (1914-1919) عرفت نوعاً من الحركة السياسية ثم الثقافية تمثلت في نشأة الأحزاب والحركات السياسية، والجمعيات الثقافية التي اضطلعت بمهمة التنوير الفكري والإصلاح الاجتماعي والنضال السياسي لبث روح جديد في المجتمع الجزائري والمطالبة بحقوقه لدى سلطة الاحتلال الفرنسي. ولقد كان لهذه الجهود صداها الإيجابي في وعي الإنسان الجزائري بعد ذلك، وفي هذا يقول مالك بن نبي: "وبعد الحرب العالمية الأولى فحسب استطاع الشعب الجزائري أن يخرج من مرحلة ما قبل التاريخ المتفككة مع عهد ما بعد الموحدين... فالحركة الإصلاحية والحركة الوطنية قد ظهرت إلى النور في هذه الفترة بالذات، وقد بدأت غشاوة الأوشاب التي سادت ما بعد عهد الموحدين في الانفراط والتفتت تحت تأثير جهد هذا النشاط الأخلاقي والسياسي المزدوج الذي حرر الوعي الجزائري. فالتناقض الانفجاري الذي أدخل الجزائر إلى حيز الأزمنة العصرية، قد بدأ تاريخه من هذا الصدام بين شعب استأنف سيره في الطريق وإدارة أجنبية كانت تعمل على إعاقه هذا السير."<sup>1</sup> ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا الصدام

<sup>1</sup> بن نبي، القضايا الكبرى، إشراف ندوة مالك بن نبي (دمشق: دار الفكر، 2002)، ص 34.

هي الثورة التحريرية عبر "النشاط المسلح لشعب مصمم على تقويض الحواجز التي سدت مستقبله... مهما كان الثمن."<sup>1</sup>

غير أن مالك بن نبي يبرز في مكان آخر الأثر الكبير الذي كان للحركة الإصلاحية في بناء الوعي الجزائري في مرحلة ما قبل 1954؛ إذ يرى أن "كل الطاقات الأخلاقية والسياسية وكل الطموحات والضغط المتراكمة خلال تلك الفترة هي التي تسنح للبلد. أن يدخل في خضم ثورته التي ستكون بالضبط ذروة هذا التطور التحضيري. إن رأس المال الثوري الذي كان متوافراً عشية الواحد من نوفمبر سنة 1954 كان في الأساس ثمرة هذا التطور الذي قامت الحركة الإصلاحية فيه بدور رئيس."<sup>2</sup>

ولعل إفراده الحركة الإصلاحية بهذا التأثير دون غيرها من الحركات الوطنية الأخرى (التي أسهمت في بناء رأي عام جزائري متحمس ضد الاستعمار) راجع إلى رؤية مالك بن نبي للعملية التغييرية التي يرى أن أساسها هو الفعل التربوي وليس الفعل السياسي، وهو ما جعله ينتقد جمعية العلماء المسلمين عندما تخلت في رأيه عن الخط الإصلاحية التربوي واتجهت نحو مغامرات السياسة ومقارماتها، منحرفة بذلك عن شعارها الذي رفعته: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. (الرعد: 11).<sup>3</sup>

### مرحلة الإنجاز (الثورة نفسها)

بعد عقود من النضال السياسي والثقافي أدرك الشعب الجزائري أن ساعة الحقيقة قد أزفت، وأن الذي أخذ بالقوة لن يسترجع إلا بالقوة، ففجر شرارة الثورة عشية

<sup>1</sup> المرجع والصفحة نفسهما.

<sup>2</sup> مالك بن نبي، من أجل التغيير، مرجع سابق، ص 47.

<sup>3</sup> مزيد اطلاع عن موقف مالك بن نبي من الحركة الإصلاحية انظر كتابه: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، إشراف ندوة مالك بن نبي (دمشق: دار الفكر، د.ت).



الفتاح من نوفمبر، وانخرط في نشاط مسلح شحن جهده البطولي طيلة سبع سنوات كاملة حتى حقق استقلاله. أما عن طبيعة هذه الثورة فإن مالك بن نبي يرى أنها ثورة فلاحين وليست ثورة بروليتاريا عمالية أو أنتلجنسيا (نخبة متعلمة)، فالذي فجر الثورة وكان وقودها الأساسي هو الفلاح الجزائري. بما تحمله كلمة فلاح من بساطة، ولكن أيضاً من بأس وصلابة، وفي هذا يقول: "فإن الشعب الجزائري هو الذي صنع الثورة، وكان الفلاح هو الذي حمل عبئها قبل العامل والمهتم بالشؤون العقلية، فقد كانت الثورة في الواقع ثورة فلاحين لا بمجرد عدد شهدائها ولكن بروحها كذلك".<sup>1</sup> لقد كانت ثورة استثمر فيها الفلاح الجزائري أصالته وقيمه الأخلاقية، تلك القيم التي جعلت نضاله مقدساً في نظره،<sup>2</sup> كما استثمر شعوره الرفض للمستعمر الذي اغتصب أرضه وجعله خماسا عليها بعد أن كان هو مالكةا.

وبعيداً عن كل أيديولوجيا مستوردة معقدة شكّل الإنسان الجزائري أيديولوجيته الخاصة التي قادت كفاحه إلى آخر الطريق، أيديولوجيا أو مفهومية جد بسيطة تتلخص في كلمة واحدة هي الاستقلال، وأضفى بها على معركته ضد الاستعمار طابع القداسة وناضل من أجل استقلال الجزائر وهو ممتلئ الشعور بأنه شخص عربي وإنسان مسلم.<sup>3</sup>

ويعلق مالك بن نبي على الأثر التغييري الذي تركته الثورة التحريرية في الإنسان الجزائري فلاحاً كان أو عاملاً؛ إذ بمجرد أن كان العامل يلقب بالمجاهد "وكأنما يلغي من ذهن الآخرين صورة الأنديجين الحقير، حتى قبل أن يطلق أول رصاصة في الجبل

<sup>1</sup> بن نبي، القضايا الكبرى، ص122.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص117.

<sup>3</sup> المرجع والصفحة نفسها.

...[لـ]يصبح البطل الواعي المدرك لعظمة تحديه للقوى الهائلة التي أمامه،<sup>1</sup> فالثورة قد فعلت فعلها الإيجابي في أناس لوثت فطرتهم رواسب الاستعمار ووحشيته. المهم في كل ما سبق أن بن نبي يعطي للفلاح مكانته المركزية في تفجير الثورة الجزائرية وصناعة ملحمتها، وينفي هذه الصفة عن المهتم بالشؤون العقلية (المثقف)، فالفلاح هو مَنْ أضفى على ثورته طابع القداسة "حيث لم يقم بذلك لا المهتم بالشؤون العقلية ولا حتى العامل الذي كان منبثاً الجذور في قليل أو كثير عن أصوله الروحية والاجتماعية."<sup>2</sup>

### مرحلة الحفاظ على الخط الثوري (ما بعد الثورة)

أعطى بن نبي لهذه المرحلة من الاطراد الثوري قدراً كبيراً من الاهتمام، من حيث بيان تقلبات الانتقال نحو المرحلة الجديدة، ومسالك الانحراف الممكنة عشية الاستقلال، وتحديد سبل البناء التي ينبغي أن يسلكها كل بلد خارج من المرحلة الاستعمارية، فالبلاد التي تخلصت حديثاً من الاستعمار لا تختلف فيها المشكلات عن بلاد أخرى تمر بالمرحلة نفسها.<sup>3</sup>

أ. تقلبات الانتقال: إن خبت قوى الاستعمار ومكرها لا يتوقف بمجرد أن تصل حركة الثورة إلى هدفها؛ أي إلى تحقيق الاستقلال والتحرير وإعلان السيادة. فالتاريخ يخبرنا أن الاستعمار "لا يستطيع [..] أن يترك [..] بلداً كان يستعمره ولا أن يغادره هكذا وبكل بساطة مخلياً وراءه المكان لاستقلال جديد،"<sup>4</sup> بل يلقي بأخر قنابله ليدنس هذه اللحظات الجليلة، وقد عاشت الثورة الجزائرية في هذه المرحلة المشكلات الآتية:

<sup>1</sup> بن نبي، بين الرشاد والنيه، ص 52-53.

<sup>2</sup> بن نبي، القضايا الكبرى، ص 123.

<sup>3</sup> بن نبي، بين الرشاد والنيه، ص 44.

<sup>4</sup> بن نبي، من أجل التغيير، ص 36.

- مشكلة زرع عناصر عميلة: وهي من الأخطاء العضوية القاتلة التي تمس الاطراد الثوري في عمقه، فالاستعمار عندما يشعر بأن ساعته قد أزفت لا يتوان عن زرع عناصر عميلة في جسم الثورة بواسطة خبثائه المختصين في إجهاض الثورات لتكون لتلك العناصر وظيفتها الحساسية في الحفاظ على مصالحه في مرحلة ما بعد الاستقلال. يقول مالك بن نبي: "وعلى النقيض من ذلك (ويقصد الذين نزلوا من الجبال لاغتصاب ما يقدر عليهم من الملكيات الشاغرة والمباني...) اتجه بعض الضباع في بزة الحركيين أو زي المدنيين صوب شعاب الجبل لكي ينحدروا ثانية من هناك في صورة أبطال، بعد أن أنسوا غيرهم أنهم قد شعبوا حتى البطنة طوال سبع سنوات مما هُشوه من لحم الشعب وما امتصوه من دمائه، ونحن نعلم بقية القصة."<sup>1</sup>

- مشكلة الصراع على القيادة: لقد كاد يوم الاستقلال في الجزائر أن يتحول إلى مأساة وإلى حرب جديدة حين تواجه الإخوة الأعداء الطامعون في السلطة برصاص رشاشاتهم، لولا تدخل جماهير الشعب وهي تنادي "سبع سنين بركات". و"الكل يتذكر كيف كاد ذلك اليوم أن يكون أحلك أيام الثورة لأن بعض الفئات دنست اللحظة الجليلة بترعات فردية لم تذب في حرارة التعارف والإخاء اللذين كانا يسودان ذلك اليوم."<sup>2</sup>

ب. مسالك الانحراف الممكنة عشية الاستقلال: ينبه مالك بن نبي في هذه النقطة إلى بعض أنماط السلوك السلبي (الأمراض الطفولية بتعبير لينين) التي تنشأ بعد خروج المستعمر من البلاد على مستوى الأفراد وعلى مستوى مؤسسات وأجهزة الدولة الناشئة، والتي قد ترهن استقلال الوطن وتعطل الأهداف الحقيقية للثورة، نذكر منها:

<sup>1</sup> بن نبي، القضايا الكبرى، ص115.

<sup>2</sup> بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ص30. و انظر أيضا: مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص114-116. انظر لمزيد اطلاع حول أزمة صائفة 1962: مذكرات الرائد سي لخضر بورقعة، شاهد على اغتيال الثورة (الجزائر: دار الحكمة، ط2، 2000).

تقهقر القوى الأخلاقية التي قامت بالثورة: وهي من علامات الانهيار التي تمس الروح الثورية عندما تُعزل الثورة عن إطارها التاريخي الحقيقي وتسيطر عليها النزعات الديماغوجية. الارتكاس إلى عهد الأثرة والمحسوبية والأنانية والمطالبة بالحق بدل القيام بالواجب: وهي نتيجة منطقية لما سبقها. ويعزو بن نبي هذه الظاهرة أيضاً إلى افتقاد الفرد للبواعث والمحفزات الروحية والخلقية (Motivations) التي تجعله ينخرط إيجابياً في نشاط المجموع. ففي مرحلة الثورة انصهر الجميع في نشاط مشترك ذابت فيه كل الفوارق والرغائب النفسية، لأن هناك باعثاً أكبر استقطب الجميع هو خدمة القضية الوطنية وتحقيق الاستقلال. وعندما تحقق هذا الهدف، وانفتحت جبهة المغام على مصراعها، بدأ يتشكل وعي زائف مضمونه أن استقلالنا سيحل كل مشاكلنا بطريقة آلية دونما جهد أو معاناة.

وقد قدم بن نبي أمثلة من واقع تلك المرحلة، كأن يلجأ أحد قادة الحركة النقابية للاقتراض من شركة بترول لبناء "فيلا"، لا ليسكنها بل ليؤجرها لسفارة، أو عندما يلجأ واحد من أركان جمعية العلماء إلى الاستيلاء على قصر كان يسكنه "المعمر" (الكولون) الفرنسي ويؤجر مسكنه، أو عندما ينقض آخر على إحدى الوظائف التي تدر دخلاً دونما عناء كبير، فهذه علامات على الانحطاط الذي أصاب الروح الثورية نفسها.

- انعدام الفعالية وسيطرة مختلف ضروب العطالة: ويتجلى ذلك في عدة مظاهر مثل إهمال بعض المصالح، وانتشار المخالفات والتعدييات الملاحظة في ضروب السلوك الفردي، والتهرب من دفع الضرائب، فـ"نحن عندما نشاهد جزائرياً قليل الاكتراث بدفع الضرائب، أو مواطناً يُهمل العمل الذي يجب عليه إنجازها، أو يرفض أن يراعي نظاماً نافذ المفعول بحجة أننا لم نعد مستعمرين الآن، [فإن] في هذا علامة الأزمة الصيبانية التي نجتازها، أي علامة ذلك الهبوط الخطير في الطاقة الكامنة الذي يشير إلى أن المجتمع بصدد استرجاع أنفاسه بعد الجهود الكبير الذي بذله حتى ينخرط في

المرحلة الموالية.<sup>1</sup> إن المجتمع بهذا لما "يَع بعد البواعث المعللة لنشاطه المشترك الجديد؛"<sup>2</sup> أي النضال في ساحات البناء بعد أن انتهى النضال في ساحات القتال.

تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية: من مزايا مرحلة الثورة أنها شحذت الفعالية الفردية والجماعية حتى بلغت أقصى درجات توترها، وبعثت القيم الجماعية من جديد - بعد ما عاناه المجتمع الجزائري طيلة العهد الاستعماري من تمزيق لشبكة أو أوصره وعلاقاته الاجتماعية - فانخرط الجميع في ضروب من النشاط والسلوك الإيجابي لخدمة القضية الوطنية، إما في نطاق المقاومة المدنية أو من خلال العمل المسلح اللذين بلغا ذروة البطولة. لكن في مرحلة ما بعد الثورة توارت هذه القيم لتحل محلها قيم الفردية والتروع الأناني، الأمر الذي أدى إلى ارتخاء شبكة العلاقات الاجتماعية وتمزق خيوطها، حتى غدت عملية التكامل الاجتماعي للفرد لإعادة إدماجه في الجهد الجماعي للمجتمع مشكلاً قائماً في جزائر ما بعد الثورة.<sup>3</sup>

**جـ. سبل البناء:** يرى مالك بن نبي أنه في هذه المرحلة تطرح على البلد الخارج من مرحلة الاستعمار مشكلات ذات طابع مزدوج، "مشاكل قصورنا قبل الاستقلال ومشاكل بلوغنا بعده."<sup>4</sup> ومن أهم هذه المشكلات التي ركز عليها والتي كان يرى أنه ينبغي على الدولة الفتية أن تضطلع بحلها لكي تستمر الثورة في معناها الجديد بوصفها نضالاً للبناء والتشييد، نذكر ما يلي:

**مشكلة المفهومية:** يرى مالك بن نبي أن مسألة المفهومية من أهم المشكلات التي ينبغي أن تثار على المستوى الوطني، فالجزائر بوصفها بلداً خارجاً لتوّه من حرب

<sup>1</sup> بن نبي، القضايا الكبرى، ص 103.

<sup>2</sup> بن نبي، المرجع نفسه، وأيضاً: بين الرشد والتهيه، ص 19 و 44-45.

<sup>3</sup> بن نبي، القضايا الكبرى، ص 113، ص 114.

<sup>4</sup> المرجع نفسه، ص 104.

استعمارية مدمرة كان يتعين عليها أن تجد الدوافع الضرورية المحركة للدفع بحركة البناء والتنمية إلى الأمام، باعتبار أن عملية البناء هي نشاط مشترك للمجموع، وهذا النشاط حتى يتم استدعي "إيقاعاً ووزناً يوتران الجهود الفردية ويفرغانها في الوقت نفسه داخل الجهد الجماعي".<sup>1</sup> إن ثورة البناء لا يمكنها حسب بن نبي أن تتم دون هذه "الحزقة" أو "الصامولة" بالتعبير الميكانيكي المادي، فالمفهومية هي تلك "الحزقة" التي كان يفتقدها النشاط الاجتماعي المشترك في جزائر ما بعد الثورة؛ فلكي ينطلق النشاط الاجتماعي ويستمر لا بد له من مسوِّغاتٍ وبواعثٍ معللة، والمفهومية هي التي تتكفل بمد المجتمع بها.

= مشكلات البنية القاعدية (رهان التنمية): إن أي بلد في مرحلة ما بعد الثورة ملزم بأن يضطلع بإرساء دعائم نظام عام جديد وشكل من الحياة يمكن من خلاهما لكل فرد من أفرادها أن يجد الدوافع والضمانات الاجتماعية الضرورية لوجوده. وتتحدد رؤية مالك بن نبي لهذه القضية فيما يمكن أن نعتبره نظريته في البناء الحضاري؛ حيث يرى أن توفير هذه الضمانات لن يتأتى إلا بمعالجة مشكلة التخلف، وذلك بحل مشكلة الحضارة، وهذه الأخيرة تتحدد بالمعادلة التالية: حضارة = إنسان + تراب + وقت. وفي هذا يقول: "إن حرب الاستقلال في بلد مستعمر تصب حتماً على السيادة الوطنية من الناحية السياسية، بينما تتجمع فيه من الناحية الاجتماعية مشكلاتُ العهد الجديد والمشكلات الموروثة من عهد الاستعمار، فالعهد الجديد حين يتأسس تحت إشراف دولة ينبغي ألا يكون مجرد إعلان للسيادة الوطنية [...]. بل ينبغي أن يكون أداة ضرورية لتنمية هذه السيادة في كل أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية".<sup>2</sup> وهذه التنمية لن تحصل إلا في "ضوء إدراكنا لكون المشاكل القائمة في مرحلة ما بعد

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص 106.

<sup>2</sup> بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ص 39-40.

الثورة إنما هي مشاكل البنية القاعدية .. [أي] مشاكل الإنسان والتراب والزمن"، فهي مشروطة بضرورة إيجاد القاسم المشترك لحلها وهو يتمثل في المفهومية "التي يجب أن تكون حلفاً بين الأشخاص وفناً صياغياً تجاه الأشياء ومنهجاً على صعيد الأفكار".<sup>1</sup>

## مقياس نجاح الثورة

### الأنموذج النظري:

تفيد مطالعة كتابات مالك بن نبي حول هذه القضية شيئين اثنين على أساسهما يمكن تحديد مدى نجاح أي ثورة أو إخفاقها:

= يتعلق الأول بالمضمون الفكري والأيدولوجي الذي تركز إليه ومدى محافظتها عليه حتى آخر الطريق.

= أما الثاني فيتعلق بالهدف الذي تسعى للوصول إليه.

1. المضمون الفكري والأيدولوجي الذي ارتكزت إليه: لابن نبي في هذا الإطار مقولة خالدة يقول فيها: "إن نجاح ثورة ما أو فشلها هو بقدر ما تحتفظ بمحتواها أو تضيعه في الطريق"<sup>2</sup>.

إن هذا النص في رأينا بمثابة قانون اجتماعي يمكن تطبيقه على كل الثورات التي حصلت في العالم، ومن بينها الثورة التحريرية الجزائرية. فكل ثورة تنطلق بمحتوى معين، لكن هل تحتفظ بهذا المحتوى حتى آخر الطريق؟ فالثورة في رأي مالك ليست معركة عسكرية محكومة بمنطق العدة والعتاد (الشيء)، بل هي محكومة بمنطق آخر هو منطق المنهج الذي يتضمن الأفكار والأيدولوجيا والمبادئ التي تسير عليها، ولن تنجح إلا إذا استطاعت أن تستصحب هذا المحتوى إلى آخر الطريق. وقد علق مالك بن نبي

<sup>1</sup> بن نبي، القضايا الكبرى، ص 118.

<sup>2</sup> إن هذا النص يذكرنا بالمقولة الشائعة "الثورة يخطط لها العقلاء وينفذها الأبطال ويرثها الانتهازيون". انظر مالك

بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ص 14.

نجاح الثورة على هذا الشرط لأنه يرى أن التفريط في مقدمات الثورة ومسلماتها سيؤول حتماً إلى أن تفقد الثورة عمقها وروحها، وعندئذ تتحول إلى "لا ثورة" أو إلى "ثورة مضادة" معاكسة للاتجاه الذي انطلقت فيه في أول الطريق. وفي هذا كتب يقول (وهو بصدد التعليق على تمسك الخليفة الراشد أبي بكر الصديق بقتال مانعي الزكاة): "إننا إذا لم نحفظ في عقولنا وقلوبنا مقدمات ومسلمات الثورة فلن نفقد (عقلاً) فقط، بل نفقد الروح الثوري ذاته."<sup>1</sup>

## 2. الهدف الذي تسعى للوصول إليه (تغيير الإنسان):

أولى مالك بن نبي قضية الإنسان أهمية كبيرة في نظريته للتغيير الاجتماعي؛ حيث يرى أن الإنسان هو الهدف والغاية. وعندما تتمتع معادلته حول الحضارة نجد أن الإنسان يشغل فيها المركز، فمالك لا يملُّ من تأكيد أن القضية هي قضية الجهاز الاجتماعي الأول وهو الإنسان،<sup>2</sup> فإذا تغير الإنسان تغير المجتمع والتاريخ. وبناءً على هذا يتصور أن على الثورة أن تحقق هذا الهدف الاستراتيجي؛ أي تغيير الإنسان. فإذا كان هدف كل ثورة - كما هو معلوم - تصفية الوطن من الاستعمار بكل أشكاله، العسكري والاقتصادي والسياسي إلخ، فإن بن نبي يقيس القضية بمعايير أخرى؛ حيث يرى أنه لكي نتحرر من أثر الاستعمار ينبغي أن نتحرر من أسبابه التي يلخصها في "القابلية للاستعمار" (la colonisabilite)، ولكي ننزعه من الأرض (أي الاستعمار) يجب أن ننزعه من الأذهان، أو على الأقل أن ننزعه عن الأذهان بعد نزعه من الأرض."<sup>3</sup>

لذلك ينبغي أن يتجه الجهد الثوري إلى تغيير الإنسان، "فالثورة لا تستطيع الوصول إلى أهدافها إذا هي لم تغير الإنسان بطريقة لا رجعة فيها، من حيث سلوكه وأفكاره

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص 16.

<sup>2</sup> بن نبي، تأملات، إشراف ندوة مالك بن نبي (الجزائر: دار الفكر، ط 5، 1991)، ص 129.

<sup>3</sup> بن نبي، من أجل التغيير، ص 83-84.



وكلماته،<sup>1</sup> ولن تكون الثورة ثورةً حقيقية إذا هي لم تعلم الإنسان "كيف يستعيد شخصيته وتلقنه معنى كرامته".<sup>2</sup> وبن نبي يعتبر ذلك مقياساً حقيقياً لنجاح الثورة؛ إذ لا يُقاس نجاحُ ثورة ما بالتغيرات القشرية التي تحدثها، "فتصفية الاستعمار من العقول تتطلب أشياء كثيرة... فهي لا تتحقق إذن بمجرد انسحاب جيوش الاستعمار، وبمجرد إعلان الاستقلال وتحرير دستور"<sup>3</sup> بل بتغيير الإنسان ذاته؛ لأن "تحويل سلطة سياسية من أيدٍ [المستعمر] إلى أخرى [أبناء الوطن المستقل] وإعادة تنظيم الإدارة وأجهزة العدالة، وتغيير العملة، وتعديل النظام الاقتصادي، كلها أمور تدخل بطبيعة الحال في نطاق الظاهرة الثورية. قد تتغير خريطة توزيع الملكية في الوطن، وقد يُسند إلى أبناء الوطن وظائف كان المستعمرون يشغلونها، وقد تُستبدل بالحروف اللاتينية حروفٌ عربية على واجهات ولافتات الحوانيت، إلا أن التغيرات هذه جميعها تصبح مجرد سحر للأبصار ولا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه،"<sup>4</sup> لأنها لا تمثل المقياس الصحيح الذي يقاس به نجاح الثورة بوصفها إعادة بناء وصياغة للإنسان.

### الثورة التحريرية الجزائرية أنموذجاً تطبيقياً

في بعض المواضع من كتابات مالك بن نبي يمكن تلمس حديثه عن قضية المحتوى الثوري للثورة التحريرية الجزائرية، وكذا أثرها في تغيير الإنسان الجزائري. فعن مضمونها يؤكد أنه نابع من خصوصية المجتمع الجزائري الثقافية والحضارية، فالذي دفع الشعب في مرحلة ثورته إلى القيام بواجب طرد المستعمر هو وعيه بالمظالم التي كان المحتل الأجنبي يرتكبها ضده، وضد دينه، ولغته، وتاريخه، وتراثه. وعندما فجر الجزائري ثورته من

1 بن نبي، بين الرشاد والنيه، ص54.

2 المرجع نفسه، ص25.

3 المرجع نفسه، ص33.

4 المرجع نفسه، ص51.

أجل الاستقلال فجرها وهو على وعي بأنه شخص عربي وإنسان مسلم.<sup>1</sup> ولم تكن الثورة لتنال كل ذلك التأييد الشعبي، والاندماج الجماهيري في أتونها، لو لم تكن موصولةً بالعمق الروحي والديني للشعب الجزائري الذي جعل نضاله في سبيل التحرير عملاً مقدساً، فالثورة التحريرية الجزائرية "استقت...أصفى جوهرها وأقوى عناصر مفهوميته من هذا الدين."<sup>2</sup> ويقول مالك بن نبي في موضع آخر متحدثاً عن المفهومية التي ينبغي أن تقود الوطن إلى ساحات البناء بعد أن قادته إلى ساحات النضال المسلح: "يجب أن تكون (المفهومية) النشيد الذي يقود الشعب بأسره، وهذا النشيد لن يكون له صده إلا إذا كان منبعثاً من روح الشعب ذاته، ومن تقاليدِه وتاريخه، ومن كل ما يجعل عمله أو نضاله مقدساً في نظريه."<sup>3</sup> وفي سياق انتقاده لفرانز فانون (Franz Fanon) الذي جعله بعضهم صاحبَ النظرية الثورية الجزائرية، يرى (مالك) أنه "كان يفتقد اللمسة التي تمز الروح الجزائرية، وتصلها بذلك العرش المقدس الذي دفع بالشعب الجزائري إلى النضال المحرر،"<sup>4</sup> لأنه كان شخصاً ملحداً. فهذا النص وغيره من النصوص الأخرى يؤكد أن مالك يرى أن المحتوى الفكري الذي استقت منه الثورة الجزائرية موصول بروح الشعب وعقيدته وانتمائه الحضاري، والجذور الإسلامية للثورة التحريرية تشكل الإطار الروحي التاريخي الحقيقي الذي انطلقت به ومنه.<sup>5</sup>

أما فيما يخص الأثر التغييري للثورة فإن مالك بن نبي يعتبر أن ثورة الفاتح من نوفمبر كانت بعثاً جديداً وتحريراً للإنسان الجزائري الذي عانى من عمليات التدمير الحضاري والتلوّث الثقافي طيلة قرن ونصف.<sup>6</sup>

1 بن نبي، القضايا الكبرى، ص 123.

2 المرجع نفسه، ص 62.

3 المرجع نفسه، ص 107.

4 المرجع نفسه، ص 108.

5 بن نبي، بين الرشاد واليه، ص 27.

6 المرجع نفسه، ص 49-54.

ورغم الأثر التغييري للثورة التحريرية وصددها على المستويين الإقليمي والدولي بعد الإنجاز التاريخي الذي حققته والمتمثل في طردها لأقوى وأطول استعمار استيطاني في التاريخ المعاصر، إلا أن مالك بن نبي يدعو إلى ضرورة أن تستفيد هذه الثورة وتستوحي من غيرها من الثورات الإنسانية المعاصرة دون انغلاق سلبى على الذات أو عقدة استعلاء أجوف، فيقول: "إن الثورة الجزائرية تستطيع أن تستوحي من الثورات العصرية لبعث الإنسان الجزائري وتغييره بعد ما أصابه في فطرته طيلة عهد الاستعمار."<sup>1</sup>

## ضرورة النقد الثوري

### الأنموذج النظري:

الثورة كأى فعل إنساني - يجتهد في دفع عجلة الواقع الاجتماعي في الاتجاه التقدمي للتاريخ - قد تشوبها أخطاء وربما انحرافات، ولكي تحافظ على خط سيرها وتوازنها ينبغي أن تتنبه إلى أخطائها وتعالجها من دون تهوين أو تهويل. وقد حرص مالك بن نبي في العديد من كتاباته على بيان أهمية النقد والنقد الثوري بوصفه سلوكاً حضارياً لتسديد جهود النضال الثوري في سبيل استكمال بناء كيان سياسي واجتماعي وثقافي وحضاري مستقل عن المركز المهيمن (الاستعمار وخليفته الاستعمار الجديد). بل إنه لم يقف عند المستوى النظري لبيان الأهمية والضرورة الملحة لعملية النقد الثوري؛ إذ سعى في بعض إسهاماته الفكرية إلى إعمال يد النقد في جوانب حياتنا الفكرية والثقافية، إن في مرحلة الاستقلال أو في المرحلة التي سبقتها. ويمكن أن نتلمس هذا في المقالات العديدة التي كان ينشرها في تلك المرحلة؛ حيث تكشف لنا مراجعتها عما يلي:

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص 26.

**الخطأ أمر طبيعي:**

بما أن الثورة فعل تغييرى إنساني فإنه قد يطالها ما يطال أي فعل إنساني؛ أي أنه مادام هناك عمل فلا بد أن يكون هناك خطأ، فالذي لا يخطئ هو الذي لا يعمل. بيد أن بن نبي في نقده للثورة يميز بين مستويين من الخطأ:

= الخطأ البريء الخفيف: الذي يتولى الزمن تصحيحه في المسار الثوري.

= والخطأ العضوي: وهذا النوع من الخطأ متولد من طريقين، فقد يكون نتيجة لإفراز المجتمع ذاته أو نتيجة مؤثر خارجي (مخابر الصراع الفكري) كما رأينا سابقاً، وهذا النوع هو الذي يجب على الثورة أن تحذره، لأنه قد يقودها إلى أن تتحول إلى "لا ثورة" أو إلى "ثورة مضادة".

**الخطأ عندما يتحول إلى مسلك:**

من المسالك الخطرة التي قد تقود الثورة إلى "لا ثورة" غياب النقد الذي يكشف الأخطاء لأجل تصحيحها، فلكي لا تؤخذ الثورة على غرة لا بد من الإضفاء إلى أصوات النقد، بل على الثورة أن تزود نفسها بحاسة نقدية تكشف لها عن مسالك الخطأ<sup>1</sup>. والثورة الناجحة هي تلك التي لا تحشى أخطاءها، وإذا هي اكتشفتها لا تُعرض عنها، لكي لا تتحول (أي الأخطاء) إلى خط ومنهج عام تسير عليه، لأن الخطأ إذا لم يكشف ويظهر فإنه سيصبح خطأً ثورياً، وهذا يعني أن الثورة ستتخذ مساراً جديداً وتحرف عن طريقها الأصلي<sup>2</sup>.

**الآليات الوقائية للحفاظ على الثورة:**

لتجنب أي مسلك انحرافي قد يقود الثورة إلى حتفها وفشلها أكد بن نبي في

<sup>1</sup> بن نبي، بين الرشاد واليه، ص28.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص18.

صيغة نقدية جملة من القضايا:1

= أن تتعامل الثورة مع الزمن تعاملًا طبيعيًا، وألا تقفز على المراحل بأن تدرك حدود كل مرحلة وشروطها.

= أن تعي بدقة لحظات الانتقال من مرحلة إلى أخرى حتى لا يتحطم مسارها الثوري.

= أن تحافظ على محتواها الفكري وتتثبت بمضمونها الذي انطلقت به ومنه.

= أن تحافظ على وحدة قيادتها حتى لا تتنازع القيادة فتصدع الثورة وتضيع أهدافها.

= أن تحافظ على شعارها وعلى مبادئها ومسلماها ولا تساوم فيهما حتى لا ينحرف خطها وتعيد عن وجهتها.

**ضرورة الارتقاء بالعملية النقدية إلى مستوى الممارسة العلمية:**

يدعو مالك بن نبي إلى أن تتحول الممارسة النقدية إلى فعل علمي يتولى عملية تبصيرنا بالأخطاء التي ينبغي ألا نقع فيها أو تصحيح ما يقع منها. وعلى هذا الأساس دعا مثلاً إلى ضرورة تأسيس علم اجتماع خاصٍ لمرحلة ما بعد الاستقلال ليكون أداةً نقدية فعالة في تسديد جهود البناء، وهي مهمةٌ ينبغي أن تضطلع بها الجامعات ومؤسسات البحث العلمي، كأن تشرف على دراسات متخصصة تتناول الحالات المنحرفة أو الشاذة والمرضية لتصفيتها.

**الثورة التحريرية الجزائرية أمودجاً تطبيقياً:**

إلى وقت قريب جداً ساد منطق الإطناب والتمجيد للثورة التحريرية الجزائرية، حتى ارتسم في وعي الكثيرين منا أنها ثورة أسطورية. وفي المقابل حاول بعضهم غمطها والتقليل من شأنها، حتى أصبح من أبناء هذا الجيل من يشكك في مصداقية كثير مما قيل وكتب حولها. وبين هاتين النظرتين حاول مالك بن نبي أن يصوغ موقفاً

1 حيدوسي، عمر، "ثلاثية الاستعمار، الثورة، الاستقلال في فكر مالك بن نبي، ثورة نوفمبر نموذجاً"، الجزائر،

متوازناً فكتب يقول: "إن الشعب الجزائري قام بدون شك بثورة مجيدة، ولكن هذا لا يعني أنها خالية من الأخطاء في اطرادها الثوري."<sup>1</sup>

واليوم تُكتب دراسات وتنجز بحوث نقدية عديدة تحاول تتبع هذه الثورة وبيان ما لها وما عليها، بل إن بعض الذين شاركوا في صنع هذه الثورة هم أنفسهم يسرون في هذا الاتجاه من خلال الشهادات التي يقدمونها للتاريخ.<sup>2</sup>

إن مالك بن نبي وهو يتحدث عن النقد الثوري بوصفه ممارسة يؤكد أن هذه الآلية لم تكن راسخة الوجود في ثقافتنا وماضينا السياسيين (أي في الأداء السياسي للحركة الوطنية الجزائرية)، ولم تسر بكيفية فعالة إبان الثورة التحريرية الجزائرية؛ إذ غالباً ما كانت تلقى الرفض "بدعوى أن كل نقد سيكون في صالح الاستعمار... بينما الاستعمار هو وحده الذي استفاد من هذا الرفض."<sup>3</sup> لذلك فهو لم يمل من الدعوة إلى تصفية هذه العقدة التي لم تعق في شيء مصالح الاستعمار بقدر ما أعاقت القضية الوطنية، وسدت الطريق على كل محاولات الإصلاح والتسديد للأخطاء التي وقعت فيها الثورة. وفي ذلك يقول: "وكم نود في بلادنا أن نتخلص من عقدة الرفض التي طالما سدت الطريق أثناء الثورة على كل محاولة إصلاح."<sup>4</sup>

إن مالك بن نبي يدعو إذن إلى ضرورة التخلص من "ذهان" (Psychose) الرفض هذا، لأنه يعد أنجع وسيلة بين أيدي مراصد الصراع الفكري وخبراء إجهاض الثورات لتجميد العقل النقدي،<sup>5</sup> وتعطيل جهود البناء، وأن ينطلق النقد الذاتي في

<sup>1</sup> بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ص 18.

<sup>2</sup> يمكن أن نذكر في هذا الإطار الشهادة التي أدلى بها أحمد بن بله لحصة "شاهد على العصر" التي تبثها قناة "الجزيرة" القطرية، أو بعض ما يكتبه ويصرح به قياديون آخرون أمثال علي كافي في مذكراته، وأحمد محساس في بعض تصريحاته الصحفية... وغيرهم.

<sup>3</sup> بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ص 41.

<sup>4</sup> المرجع نفسه.

<sup>5</sup> المرجع نفسه، ص 42.

الجزائر إلى أبعد مما وصل إليه في البلاد التي صاغته ومارسته،<sup>1</sup> بأن يغدو ممارسة علمية تضطلع بها جامعاتنا في شكل دراسات علمية ترصد وتتبع الحالات المرضية.

## موقف مالك بن نبي من الثورة التحريرية الجزائرية

### سيرة مالك بن نبي النضالية قبل الثورة:2

أسهم مالك بن نبي إسهاماً مهماً في مسيرة الحركة الوطنية الجزائرية حتى قبل أن تولد الثورة التحريرية. فميوله الوطنية والإصلاحية، ووعيه بالمعامل الاستعماري ونضاله ضد الاستعمار كان بارزاً في سن مبكرة من عمره. وتكفي مطالعة بعض فصول مذكراته للوقوف عملياً على هذا الوعي والنضال المبكرين، من خلال موقفه من ذلك الأوربي الذي ركله ذات مرة، إلى ولعه بقصة خطاب ذلك الشاب الذي ثار في وجه المعمرين ومآثر الأمير خالد في نضاله من أجل حقوق الجزائريين، إلى تتبعه لأخبار مصطفى كمال التي كان يراها في ضميره مرادفة للخلاص والانتعاق، إلى حماسه لحرب الريف بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي التي نالت منه كل تأييد.<sup>3</sup> هذا الوعي تجسد فيما بعد - بالحلي اللاتيني حيث كان يقطن الطلبة المغاربة - في صورة

1 المرجع والصفحة نفسهما.

2 اكتفينا هنا بذكر بعض اللمحات العامة وللإستزادة أكثر حول الدور النضالي لمالك يمكن الرجوع إلى كتابه مذكرات "شاهد على القرن".

3 يتحدث مالك بن نبي أيضاً عن الدور الذي لعبته دروس بعض المشايخ الذين درس عليهم مثل الشيخ ابن العابد والمولود بن الموهوب مفتي قسنطينة والتي نمت فيهم روح الانتعاق والخلص؛ حيث بدأت عبرها بذور التزعة الإصلاحية في شخصيته، فهو يقول: "...وكاننا نجد شيئاً أكثر لدى الشيخ مولود بن موهوب... لقد احتفظ الشيخ في ذهنه بذلك الأثر الذي غرسه في نفسه دراسته على يد معلمه (عبد القادر المجاوي) وقد تولى هو نقل تلك الفرسة إلى الأجيال من المدرسين وكنت منهم، وقد أُنعت ثمارها في الحركة الإصلاحية الناشئة في الجزائر"، انظر: سعود، الطاهر، التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي (رسالة ماجستير في علم اجتماع التنمية، قسم علم الاجتماع، جامعة قسنطينة، 2000م).

نشاط ثقافي وسياسي في أوساط الطلبة؛ حيث أصبح مالك بن نبي مع بعض زملائه داعية للوحدة المغربية، وهو ما ما كانت له آثار سلبية في حياته الشخصية وحياته أسرته. وقد ذكر في مذكراته ما صنعته الإدارة الاستعمارية بوالده الذي فصل من عمله ليتحمل عبء مواقف ولده المكافح في جبهات الصراع الفكري.

وإذا كانت جهود بعض فعاليات الحركة الوطنية قد سلكت في نضالها ضدّ المستعمر مسلك النضال السياسي، فإن مالك بن نبي قد تعدى ذلك ليتعمق في فهم الظاهرة الاستعمارية ويتعامل معها من منطلق المفكر الذي يرقب الظاهرة ويبين سبل الخلاص منها. وفي هذا الصدد قدم كتابات وإسهامات فكرية عديدة للتبصير بشروط هضتنا كأمة تعاني القابلية للاستعمار قبل أن تقع فريسة للاستعمار، والتفاؤل بمستقبلها ووجهتها في التاريخ، والوعي بالآليات التي تستخدمها مخابر الصراع الفكري... إن نضالاً متقدماً مثل هذا، ووفاءً على الخط الأصيل في الدفاع عن قضايا الشعب الجزائري يجعلنا نستبق إصدار الحكم - وندرك حتى ولو لم نقرأ - عن موقف مالك بن نبي من الملحمة الوطنية التي تجسدت بعد ذلك في ثورة الفاتح من نوفمبر.

### سيرة مالك بن نبي أثناء الثورة:

أدى اندلاع الثورة التحريرية إلى تباين في المواقف حولها؛ فاتجهت أطراف من الحركة الوطنية سواء كانت فردية أم حزبية إلى تبنيها منذ يومها الأول، بينما تريثت أطراف أخرى ولم تبرز مواقفها التأييدية إلا بعد أن تأكد لها أنها حقاً هبة عامة لشعب يريد الفكك من إसार الاستعمار، في حين لم تعترف أطراف أخرى بالثورة إلا بعد أن اعترفت بها بلدان تدور هذه الأطراف في نفس فلكها الأيديولوجي، بل إن أطرافاً أخرى قد قاومت الثورة بجد السلاح.

في هذه المرحلة كان مالك بن نبي لا يزال مغترباً في فرنسا بعد أن دفعته إلى ذلك



ظروف الحرب العالمية الثانية التي تركت آثاراً قاسيةً في حياة أبناء الجزائر. وفي عام 1956 وجد الفرصة متاحة أمامه للتوجه إلى مصر بسبب ما كانت تشهده من ثورة بناء جديدة (وبسبب احتضانها للثورة التحريرية الجزائرية وقيادتها). وهناك استطاع أن يقوم بعمل فكري وتنويري متميز؛ حيث أصبح محورَ استقطابٍ للنخبة العربية والجزائرية والرمز الذي التفت حوله هذه النخبة،<sup>1</sup> فكان يمارس الكتابة ويعقد الحلقات الفكرية الأسبوعية في بيته كما كان يلقي دورياً كلمة في إذاعة صوت العرب.

وفي القاهرة برز موقفه التأييدي العلني والصريح للثورة التحريرية. وقياماً بواجبه كمفكر وكاتب في مناصرة قضية بلاده نشر كتابه "فكرة الأفريقية - الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ" ذي الصلة الوثيقة بالقضية الوطنية، كما نشر للثورة التحريرية بوسائله الخاصة دون أي تأييد مادي أو معنوي من أحد كتيباً يفضح وحشية المستعمر الفرنسي وفضائعه ضد الشعب الجزائري وينبه الرأي العام العالمي إلى الثورة التحريرية وقد حمل ذلك الكتيب عنوان "النخبة: الشعب الجزائري يباد، S.O.S Algeria".

وفضلاً عن ذلك، عرض نفسه لتصرف القيادة الجزائرية، وكتب إلى المسؤولين خطاباً يطلب فيه منهم توجيهه نحو جبهة القتال في الداخل كمرض. وقد جاء فيه: "وأعتقد أنني إذا وجهت داخل الجزائر كمرض عسكري في جبهة القتال أستطيع في نفس الوقت أن أقوم بكتابة تاريخ الثورة الجزائرية على طريق المشاهدة تقريباً."<sup>2</sup> وكذلك سلم لهم بهذا الصدد خطاباً مفتوحاً إلى رئيس الوزراء الفرنسي "غبي مولي" كي يذاع مع نشرات جبهة التحرير، ولكن موقف القيادة الثورية كان سلبياً؛ إذ لم

<sup>1</sup> بوخمحم، عبد القادر، "النخبة، اليسار، السلطة، مقابلة مع عمار طالبي"، جريد الشروق العربي، العدد 458،

18-24، جوان 2001م، الحلقة الأولى.

<sup>2</sup> بن نبي، في مهب المعركة، ص81.

يتلق منها أي رد.1

وعلى الرغم من كل هذا فإن جهات وأطرافاً عديدة حاولت التشكيك في موقف مالك بن نبي من الثورة التحريرية، فعمدت إلى استخدام وسائلها وأبواقها وحشراؤها المدسوسة - كما يسميها هو - في أوساط الطلبة لتشجيع عنه أنه "رجل انعزل في برجه العاجي عن الثورة الجزائرية ولم يساهم فيها بشيء".2

والحقيقة هي أن وراء هذا التشكيك في موقف هذا المفكر الذي ينتمي إلى جيل النخبة المثقفة العضوية والمرتبطة بأصالة مجتمعها وانتمائه الحضاري أغراضاً مشبوهة حاول الإلماع إليها أحد تلامذة مالك بن نبي ورفقائه هو الأستاذ عمار الطالبي؛ فقد أبرز في حوار صحفي<sup>3</sup> ما تعرض له مالك بن نبي أثناء إقامته في القاهرة من المحاصرة والمراقبة من قبل جهات مرتبطة بقيادة الثورة. وقد فسر الطالبي سبب ذلك بالخوف الذي كان مسيطراً على بعض القياديين في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من أن تنافسهم النخبة المثقفة المقتدرة - وكان مالك بن نبي على رأسها - في مراكزهم القيادية، وأن تتمكن من خلق تكتلات مضادة تجمع حولها الطلبة والمثقفين.

إن هوس السلطة وحب الوجاهة والافتقار إلى مستوى ثقافي مقبول - حسب عمار الطالبي - هو الذي جعل هؤلاء يقفون في وجه النخبة المثقفة الأصيلة كي لا تصل إلى هذا الهدف وتطرح البديل النضالي والفكري للأساليب البالية السائدة، وتؤسس لعمل نضالي وثوري بإمكانه استيعاب التحديات والرهانات المستجدة.

1 علق مالك بن نبي على هذا الموقف بقوله: "فرما اعتقد المسؤولون أن الثورة الجزائرية ليست في حاجة إلى تطوعي، وربما فكروا أن مؤهلاتي ليست كافية، وربما..". المصدر نفسه، ص81.

2 المصدر نفسه.

3 بوحخم، "النخبة، اليسار والسلطة، مقابلة مع عمار طالبي" جريد الشروق العربي: الجزائر، العدد 485 (من

18 إلى 24 جوان، 2001)، الحلقة الأولى.

ولذلك عمد هؤلاء بكل الأساليب المادية والمعنوية إلى محاصرة مالك بن نبي، فقطعوا عنه راتبه الذي كان يتقاضاه من إذاعة صوت العرب، بل إن البعض من أعضاء الحكومة المؤقتة كان يقول عنه باستمرار وفي جلسات عامة متهكماً بأنه يتفلسف.

إن سيرة هذا الرجل المكافح في جبهات الصراع الفكري في مرحلة ما قبل الثورة ثم في مرحلة الثورة نفسها تدل على أنه كان نصيراً لكل جهد يرمي إلى الفكك من إसार المستعمر ومن إसार القابلية له. لقد كان يرى في الثورة التحريرية الجزائرية كفاحاً مقدساً لشعب بأكمله، كفاح الطفل الجزائري في سبيل مستقبله، وكفاح المرأة الجزائرية من أجل سعادة بيتها وأسرقتها، وكفاح الشهداء والأبطال الذين أراقوا دماءهم من أجل الحق المقدس في الحياة، وبكلمة واحدة كفاح شعب من أجل البقاء والكرامة والحرية.<sup>1</sup>

## خاتمة

بناءً على الاستعراض والتحليل السابقين ندعو إلى ضرورة التواصل مع أفكار مالك بن نبي في دراسته للظاهرة الثورية ولغيرها من الظواهر التي شغلت حيزاً مهماً من إنتاجه الفكري، ولا تزال إلى اليوم تشغل الكُتّاب والمفكرين (مشكلات التخلف، التنمية، الثقافة، الأفكار إلخ).

إن ما حاولنا إبرازه هنا فيما يتعلق بالظاهرة الثورية جزءٌ مما قدمه مالك بن نبي، وهناك من الأفكار والقضايا ذات الصلة بالموضوع نفسه ما لم يسعفنا الجهد لتحليله، وهو ما يحفز الجهد العلمي لاستكمال النظر فيما كتبه مالك إما بالتعديل، أو الإنضاج، أو التجاوز، إذا استدعت الضرورة ذلك.

بقي أن نشير هنا إلى أن ما توافر لنا من مصادر حول موقف مالك بن نبي من

<sup>1</sup> انظر صفحة الإهداء من كتاب بن نبي، وجهة العالم الإسلامي.

الثورة التحريرية وإن كان مقبولاً لا يعد كافياً، وهو ما يفرض علينا البحث عن مصادر أخرى للمعلومات المتصلة بهذا الموضوع؛ إذ نتمنى أن نصل إلى تجميع وتحليل أحاديثه التي كان يلقونها بإذاعة صوت العرب، وكذا الحصول على الكتيب الذي نشره (أي كتاب النجدة الشعب الجزائري يباد)، والخطاب الذي وجهه لرئيس الوزراء غي مولي وغيرها من الوثائق المهمّة، حتى تتكامل لنا صورة انفعاله بمموم الثورة وقضاياه وتفاعله مع أحداثها ووقائعها وإسهامه الإيجابي في مسيرتها.